



لمحات من تاريخ الطب البابلي القديم، العبر والدروس

الأستاذ الدكتور حسن علوان بيعي

اختصاصي طب الصحة العامة وطب المجتمع

عضو جمعية تاريخ الطب العراقية

يشير الباحثون في الأنثروبولوجيا وعلماء دراسة التاريخ إلى: ان من لا ماضي مشرق له لا مستقبل له ، من هنا تأتي أهمية فهم التاريخ القديم لمهنة ما وتحليله بشكل علمي للوقوف على نقاط القوة والضعف لاستخلاص العبر والدروس لتكون حافزا لاستشراف المستقبل في ضوء دراسة الماضي .

للأسف نحن معاشر الأطباء والعاملين في المهن الصحية والمؤسسات المسؤولة عنها لم تعط اهتماما كافيا لقراءة تاريخ هذه المهنة الخدمية والإنسانية القديم وحتى المعاصر منه على عكس الدول التي سبقتنا في مضمار التطور والنماء السريع في المهن الصحية.

في العقود الثلاثة الماضية سنحت لي فرص للمشاركة في أبحاث لأكثر من عشرين مؤتمر طبي عالمي خارج العراق، لا أتذكر اني لم اسأل في أي واحد منها من قبل بعض المشاركين من الأجانب عن تاريخ الطب البابلي القديم واحرج في بعض الأحيان بقيام احد الأطباء الأجانب بالحديث عن بابل القديمة و شرح ممارسة الطب فيها بأسرها و موسوعية اجهل بعضها

ففي عام 2003 وخلال حضوري لمؤتمر الجمعية الوبائية العالمية السادس الذي عقد في ايران ، و كان من محاور هذا المؤتمر التأكيد على أهمية تطوير الأبحاث الطبية فوجئت بموسوعية احد المحاضرين الدوليين الكبار (وكان قد

سألني عن مكان عملي و محل إقامتي فأخبرته بانني تدريسي في كلية الطب جامعة بابل وان عائلتي سكنت المدينة منذ قرون (فوجئت به وهو عالم أمريكي من أعلام و جهاذة علم الوبائيات وهو يبدا محاضراته بالقول: ان من علم الدنيا منهجيات البحث الطبي التجريبي هم البابليون وان احد الحاضرين بيننا في هذا المؤتمر وأشار لي بالوقوف من بابل واستمر بالحديث قائلا ان الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني اجرى أول بحث تجريبي طبي صحيح في العالم ليضع الأساس لتطور الطب ونجاح البحث التجريبي فيه. استكمل حديثه بعد ان تحدث عن عظمة بابل وسط تصفيق وإعجاب الحاضرين قائلا : قسم الملك البابلي عينة من اسرى السبي البابلي من الجنود اليهود الأسرى إلى مجموعتين المجموعة الأولى طلب منهم تناول اكل طعام الملك وحاشيته(الغني بالدهون و اللحوم الحمراء والمواد المحلاة والخمور...) والمجموعة الثانية استمرت في تناول الطعام التقليدي لليهود (الغني بالزيتون وزيته والزعر والبقول واللبن...) وترك المجموعتين التجريبية والضابطة المتساويتين في الأعمار يعملون بنفس العمل في بناء الجنانن المعلقة

وتابع نبوخذ نصر مع فريق من أطباءه بحثه التجريبي ليحدد الفرق بين المجموعتين من ناحية الموت والمرض وكفاءة الإنتاجية (يطلق على هذا المنهج البحثي التجريبي الآن اسم كواسي) استنتج الفريق البحثي البابلي قبل اكثر من 2500 عام ان غذاء الملوك مرتبط باعتلال صحتهم وقصر حياتهم ،بؤكد علم التغذية الحديث في القرن الواحد والعشرين صحة هذا الاستنتاج. وعلم البابليون العالم كيفية الاستحمام واهمية النظافة ودور الصحة البيئية في تعزيز الصحة العامة .

ان هذا الإنجاز العلمي حري ان يتبع من قبل أطبائنا الآن في التركيز على تطوير الأبحاث العلمية الرصينة لان البحث العلمي هو القاطرة الوحيدة التي تنقلنا نحو الأفضل ، على أطبائنا الرائعين ان ينكبوا عل مواصلة البحث و التعلم الطبي المستمر والعالي الجودة فهم أحفاد أولئك العظام الذين وضعوا قواعد البحث العلمي الطبي حسب ما أشار اليه البروفيسور جون لاست في كتابه علم التبيؤ والصحة العامة في طبعته الأخيرة، وما أكده الأمام علي(ع) بقوله :ما دام المرء يطلب العلم فهو عالم فان ظن انه علم فقد جهل ، وقد طلب منا المتنبي ان نسير على نفس خطى جدودنا قائلا

ومن تكن الأسد الضواري جدوده

يكن ليله صباحا ومطعمه غصبا

الأمثلة كثيرة وكم من زملائي الأطباء قد تعرض لمثل هذه المواقف عند حضورهم مؤتمرات دولية خارج العراق

ان تشريعات حمورابي تذكر كأول تشريع طبي في العالم نظم العلاقة بين الطبيب والمريض ، نعاني الآن للأسف الشديد من ضعف القوانين التي تحمي ممارسي المهن الطبية والصحية وتطور الجانب المهني للطبيب

الطب البابلي ازدهر في القرن الرابع قبل الميلاد وكان البابليون يعرضون مرضاهم في الساحات والشوارع طلباً للنصيحة والإرشاد من المارة وكان للطبيب مكانة عالية عند الدولة وكان يطلق عليه اسو من الاسى اي انه يواسي المريض في الألمه

نقلت لنا الاف الرقم الطينية ما يشير الى الرعاية الصحية في ذلك العصر وتطور المهنة ووضع القوانين المنظمة للعلاقة بين المريض والطبيب وتحديد العقوبات الخاصة بالأخطاء الطبية وحماية حقوق الطبيب والمريض

وقد أشارت الرسوم في الرقم الطبية إلى وصف لا مراض معينة من خلال تدوين اعراضها كالأم العضلات والحمى وفقدان الشهية والتعرق و النحافة ووصفوا السعال المزوج بالدم كل هذه الصفات تدل على تفشي مرض السل (الدرن الرئوي) وقد وجدت اثار السل في الهياكل العظمية

كان الطب البابلي يمارس في المعابد او زيارة المرضى في بيوتهم(الرعاية الطبية المنزلية) وقد وجدت مواد قانونية في مسلة حمورابي تنظم العلاقة بين الطبيب ومريضه وكان مبدأ العين بالعين والسن بالسن هو السائد حيث تقطع أصابع يد المعالج اذا مات المريض، اذا جاء مريض لطبيب يصفحه ليرى ان بعض من أصابعه قطعت يذهب لطبيب اخر.

كانت هناك مدرسة طبية في بابل (اهتم البابليون بالتعليم الطبي ووضعوا معايير لاختيار طلبة الطب) وكان البابليون القدماء يهتمون بالبيئة و النظافة العامة ويركزون على حماية العاملين من مخاطر المهن ووضعوا القوانين لتنظيم ذلك

قسموا البابليون الطب الى ثلاثة أصناف(اختصاصات)

1. طب السكاكين (الجراحة) مارسوا أجراء عمليات معينة وكان عدد الجراحين قليل جدا لشدة العقوبة على الخطأ الطبي للجراحين 0العين بالعين والسن بالسن)

2. طب الأعشاب (الطب الباطني) عرفت العديد من الأدوية النباتية والحيوانية وبلغ عددها أكثر من 285 دواء وازدهر هذا الاختصاص أكثر من الجراحة

3. الطب الروحي (الطب النفسي) وهو الأكثر شيوعا وتطبيقا لارتباطه بالدين والاعتقاد ان سبب الأمراض هو غضب الاله

ان التعمق في تفاصيل الطب العلاجي البابلي يحتاج الى تفاصيل يجب ان تطرح بكتاب فمن بنبري من المؤرخين والآثارين بذلك؟.

الوقاية والصحة البيئية كان لهما اهتمام كبير عن البابليين ورجال دولتهم حيث ذكر المؤرخون الطبيون ان بيئة بابل القديمة هي من انظف وانقى البيئات في العالم القديم من حيث نقاء ماء الشرب و سلامة الصرف الصحي للمياه الثقيلة ونظافة التربة ، كانت مدينة كيش على مدى الفي عام الاولى بتصميم الصرف الصحي عالي الكفاءة وكان في شارع الموكب مرافق صحية على جانبيه يستعملها المواطنون في الكرنفالات ولنا ان نقارن الواقع الحالي بالماضي لنقول لا بنائنا الأمل بكم .

العطاء في خدمة الناس صحيا وبأعلى درجات الجودة قادم ان شاء الله لان ركيزة التنمية في بلدنا الحبيب وكما هو في العالم المتحضر هي الصحة ، كلنا عيال الله واحبنا اليه انفعنا لعياله والله يجزي كل خير من احسن عملا.